

صحَّ النَّوم

....

مسرحية "صحَّ النَّوم" تتحدّث بقالب، كوميدي خفيف، عن البيروقراطية في تعامل أجهزة الحكومة مع متطلبات الناس وآليات تسهيل معاملاتهم الورقية الضرورية للسير بمشاريعهم وحاجياتهم نحو الإنجاز. فيها مزجٌ لطيفٌ ومحَبَّبٌ لخيال الحكايات بالواقع المليء بمتاعب الناس ومعاناتهم دون أن يدخلنا الحوار بمتاهات البحث الجدِّي في الأسباب والحلول.. نحن ببساطة في مكان ليس له حدود أو مواصفات ماعدا الحياة الطبيعية لأناس يعملون ويتعايشون وقد تأقلموا مع حاكمهم الوالي الفرد الهنيئ الطَّبَّاع والخاصَّ المزاج ومع طريقة عمله التي لا تحقق رضاهم ولكنهم لا يعلنون التمردَ أو المقاومة.. ونحن هنا في زمان تشبه صورته الكثير مما يحيط بنا دون أن يقيد المؤلفان نفسيهما وساحة تقبُّلنا بحقبة معينة.. محور المسرحية مقارنة بين عجز البيروقراطية والرجعية عن تلبية حاجات الناس وحياتهم الطبيعية وقتلها للوقت والجهد، من جهة، ومرونة الحرية في تسيير الأمور وتنشيط الحركة وتحقيق سعادة ورخاء المواطنين، من جهة أخرى.

....

بعد أن يقدِّم موظَّف التشريعات خاتم الولاية (خَتْمٌ !) يعرفنا الوالي به على سبيل التقليد الذي تعود على فعله كلما طلع القمر والتقى بمواطني ولايته:

الوالي: هايدًا الخَتْم، خَتْم الدَّوْلَة، هُوِي الدَّوْلَة، خَتْم الولاية الموروث.. عملُو جدِّي الأوَّل أشلوح من خَشَب جَوْزَة عَتِيْقَة، قَصُّوها وَعَمَّرُو مَطْرَحَها القَصْر.. وَيُقِي الخَتْم رَمَز الجَوْزَة اللي تعمَّر عليَّها القصر، ونزل من إيد ل إيد.. ل إيد ل إيد حتَّى وصل ل إيدي.

مِنْشَان هِيَك ما بَخَتْم كَثِير فيه أحسن ما يدوبو حروفو وتتعطلَّ معاملات الإيَّام الجايي وَيَحْتَجُّو الأولاد اللِّي بدَّهن يكبِّرو وَيُصِير عِنْدُن عراييض وبَدَّهن يَخْتَمُّوها.

يبتهل المواطنون متضرِّعين لـ (ختم الولاية العتيقة) أن (لا تبخل بكرمك علينا) وفيما يتفحص الوالي أصحاب الأيدي الممدودة كي يختار ما يروق له تقترب منه فجأة قرنفل تحمل شمسيته وتتوجه إلى الوالي بكلامها ملحنًا وسريعًا:

قرنفل: يا مَوْلانا الوالي هَبَّط سَطْحِي بالشتِّي
وَالِي سِتَّ اشْهُر تَحْت هالشمسيَّة
وَبَدِّي عَمَّر سَطْحَنَا قَبْل الشَّتْوِيَّة
اخْتَمَلِي مَعاملَتِي يا مَوْلانا خَطِيِّي
الوالي: بَعْدَها يازيْدُون صَوْتا عالي

....

أخيراً يُعرب الوالي أنّ النُّعاسَ أتاه فيعرض عليه زيدون الذهاب إلى قصر النوم ولكنه يرفض طالباً إبقاءه في الساحة كي ينام (الهوا عم يئنسّم وشغل كثير وأنا والي شعبي.. بدّي آخذلي شي غطّة بمركز الوظيفة).

وقبل أن يغرق الوالي بسباته يتمنى للجميع شهراً خيراً فيُرَنّموا له التمنيات بنوم هاديء ولأنفسهم برضى الختم عليهم في الشهر القادم.. أما زيدون فيطلب من الحراس إحاطة الساحة ومدخلها والحفاظ على الهدوء (أوعي حدا يزعجُو).

يخرج الجميع إلا قرنفل التي اختبأت خلف كرسي الوالي الكبير فلم يرها أحد. تُطفأ الأنوار وتخرج الفتاة من مخبئها مقتربة من يد الوالي الموضوع على صدره تغطي السلسال الذي علّق به مفتاح صندوق الخاتم. بصوت هاديء ونغمة تصوّر حذر الذي يقوم سراً بعمل غير مشروع تخبرنا قرنفل عما تفعله في هذه العتمة الخطيرة:

قرنفل: يا مولانا الوالي ختم واحد بعد
مالي حدا غيرك وبكرا جايي البرد
يا سيّد الولاية فلّيت وتركتنا
بهاالساحة الحزينة متل بطل حزين

....

الوالي، الذي أسعدته فرحة الأهالي وسُرَّ بأغنية مستشاره زيدون وبالرقصة الحبوية التي تمايلت الخصور على ألائها وبابتسامات الوجوه السعيدة، تركّز انتباهه على باحة الرقص أمامه إلى أن انتهت الفقرة وحلّ الصمت انتظاراً لتعليق الوالي الذي ينتقل فجأة بناظره بين زوايا الساحة ويمتد بهما بعيداً ليجد كلّ شيء وقد تغير وتلاً فيصرخ مع شقيقه الطويل مشدوهاً (ولك هايدي الساحة ولا لأ؟)

الناس: هايدي الساحة
الوالي: ولك أنا نايم ولا الدني تغيرت؟
الناس: تغيرت وتعمرت إنت ونايم
الوالي بهدوء: ومين اللّي عطي الأوامر؟
الناس: سعادتكم
الوالي: سعادتنا؟ أي متي؟
زيدون: الشهر الماضي يامولانا لماً سعادتكم روبصتو
وصرتو تيمشو بالنوم.. وختمتو كلّ الطلبات
الوالي: مش معقول!!
زيدون: وهالشهر مافي إلا طلبين: طلب شاكر الكندرجي
وطلب تصليح واجهتكم
الوالي: مش معقول!!

قرنفل التي صرخت أكثر من مرة (ياعمّي لا توعوه) والتي تمنّت على القمر ألا يطلع وأن يغيب عن البلد (غيبك سينة يا قمر) كانت تعلم بأن لحظة الحرّج آتية لامحالة. فالوالي الذي استيقظ مع البدر وجاء إلى الأهالي في ساحتهم وسرّه فرحهم سيتفقد الخاتم لامحالة، خاصة وأن له في هذا الشهر (معاملة) طلب تصحيح واجهة الزجاج التي كسرتها الرياح. ودفعاً للقلق تتسلل قرنفل الصامته من الساحة وقد شُحِب وجهها من شدّة الخوف ..

يوميء الوالي إلى حامل صندوق الخاتم فيأتيه به ثم يسحب من تحت ياقة رداءه السلسال الحامل لمفتاح الصندوق ويفتحة كالعادة فيما ينتظر الناس، وخاصة شاكر، ظهور الخاتم العزيز. وإذ يرى الوالي الصندوق فارغاً يغلقه بسرعة وكأنه لا يريد أن يصدّق عينيه.. يتلفت حائراً ويعيد ببطء فتح الصندوق الذي لا يراه غيره ويتلعثم ثم يصرخ (الختم).. (انسرق الختم!) ..

....

ويتابع الوالي توبيخه لزيدون (فكرك؟ نحنا ما فينا نختم كل الطلبات بفرد مرة؟).. لكن سلاله أشلوح بدأ تبطيء الزمن!!)

في ما يقوله الوالي تعبيراً صريحاً وواضحاً عن فلسفته ورؤيته لمسائل الحياة والتقدم وللعلاقة مع الزمن. وهنا نرى بكل وضوح أيضاً المعنى الكبير للخاتم وما حوله ولآلية السير بالإجراءات الإدارية للناس في ظل الأنظمة الرجعية التي تستخدم سلطتها أساليب بيروقراطية للتحكم بأمور المجتمع وكبح تقدمه وتطور أساليب حياة الناس وإنتاجهم التي يمكن أن تشكل عناصر مهمة في فتحهم ووعيهم وتصبح بالتالي مصدر قلق لتلك السلطة التي تحتكر كل شيء لنفسها وتفعل المستحيل ضماناً لديمومتها. يتابع الوالي حديثه بطريقته البليدة مؤكداً فلسفة جدوده من سلاله أشلوح:

الوالي: بدأ تبطيء الزمن.. تخلي الوقت يمشي على مهلو
وتخلي العمائر تعمّر مثل الشجر شوي شوي
والطرقات تمشي مثل الأطفال شوي شوي
حتى ما نشعر بالغرابة

....

ويرق قلب الوالي الذي أعرب عن خوفه على قرنفل وهي في جوف البئر أكثر مما خاف على الخاتم مقيراً بأن جهنم خاوية من الناس لأن (الإنسان أحلى من النار) وأنه ليس من المعقول أن يقتلها (معقول الإنسان يقتل واحد خاف عليه؟).

إنه الحل الوسطي في الفكر الرحباني.. يتراجع الوالي طالما أن حقوقه مُصانة، ويقنع بمطالب الناس المتمثلة بـ (غسيل الخاتم) أي باستخدام تراث الأجداد بعد غسله وتنظيفه مما تراكم فوق سطحه من أوساخ الزمن وتنقيته بالشكل الذي يلائم متطلبات الأيام الحالية والاقتناع بتطويره دائماً كي يقبله المستقبل.. وليكن هذا التراث بيد الناس الأكثر فتوةً ويقظة!

يحيي الجميع مولاهم الوالي. وقبل أن يغادرهم إلى قصر النوم يهرع شاكر بمعاملته طالباً ختمها (دخيلكن معاملتني) فيحيل الوالي أمره إلى قرنفل بطريقة ظريفة مذكراً الناس بأنه لن يتخلى عن حقه في النوم عندما يدبُّ النعاس (خلص.. نعست وبدي نام):

الوالي: من اليوم ورايح أنا رخ نام.. وإنتي ياقرنفل ختمني مطرحي
إيدك أرشق من إيدي